

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا تبارك وتعالى ويرضى. الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه. الحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم واليه المصير. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. فنستعين بالله ونتوكل عليه ونستمد منه التوفيق والعون والممدد، ونبدأ في مجالس رياض الصالحين. وفي هذه المجالس سيكون تناول آيات وأحاديث هذا الكتاب الشريف. ونرجو من الله سبحانه وتعالى أن يتم علينا النعمة باتمام هذا الكتاب فيما يبسره ويقدره من الزمن والقدر. والغرض في تناول هذا الكتاب وأحاديثه ليس الوقوف التفصيلي على كل جمل الأحاديث، ولا شرح الألفاظ والمفردات بطريقة شمولية. وإنما القصد هو الوقوف مع مجمل الفوائد. ستتتبع الوقفات التي يمكن أن نقف من خلالها مع الأحاديث، فبعضها قد يسترسل الإنسان في الوقوف معه والتعليق عليه، وشرح الدرس المستفاد منه، وبعضها قد نمر عليها مروراً سريعاً، خاصة وأن أحاديث الكتاب متنوعة ومتعددة. القصد هو التعليق على المقاصد المرتبطة بالباب والمعنى. وعندما نقرأ هذه الأحاديث، نقف عند فعل النبي ﷺ، هديه، أخلاقه، توصياته، وما أحبه من أصحابه أن يقوموا به وما أراد من أمته أن ينفقوا عنده. فالإنسان يقرأ هذه الأحاديث ويعلق عليها ويتدارسها. والقصد الأعظم في هذه الدروس هو معرفة هدي النبي ﷺ ودعوته وسلوكه وسنته، وكيف بلغ النبي وما الأمور المرتبطة به. ولذا، فإن هذه السلسلة ليست الوحيدة المتعلقة بهدي النبي ﷺ وطريقته وسنته وأخلاقه وشمائله. وقد سبقتها سلسلة غيث الساري. كنت متردداً اليوم ما بين أن يكون الدرس في غيث الساري أو البداية في رياض الصالحين، لأن الغرض واحد، وهو متصل بهدي النبي ﷺ وسلوكه وسنته في نصرته الدين والبذل والتضحية، وكونه القدوة. فهذه هي الزاوية التي أدخل من خلالها إلى هذا الكتاب. والميزة في هذا الكتاب هو أن مؤلفه الإمام النووي رحمه الله تعالى قد انتقى أحاديثه وأبوابه بعناية، واعتنى بالقصد إلى طريق الآخرة. فقد أدخل فيه أحاديث القلوب والرفائق والتزكية والأدب بتفصيلات على مختلف الأحوال. والكثير مما جاء فيه مرتبط بالتزكية وصلاح النفس والقلب وأعمال القلوب وحقائق الدين المهم هو التعلق بالمقاصد والهدف الأعظم من هذه الدروس هو معرفة ماذا كان النبي ﷺ وماذا دعا به، وما أهمل، وكيف كان سلوكه. لذا ينبغي أن يعتني طلاب العلم بأبواب الدين الشاملة، وأن لا تكون عنايتهم مقتصرة على الأحكام المجردة. نستعين بالله ونبدأ، والطريقة ليست متعلقة بالمفردات، فقد نمر على حديث واحد أو اثنين أو ثلاثة ثم نقوم بالتعليق على المجمل. وقد يحدث أحياناً أن نقف مع حديث ونسترسل معه بحسب ما يراه الإنسان من المصلحة والمنفعة في ذلك بإذن الله تعالى. أما باب الاخلاص واحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية، فقد بدأ به الإمام النووي رحمه الله تعالى. قال تعالى: "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة". وقال تعالى: "لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم". وقال تعالى: "قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله". بدايةً، الجمع بين الآيات والأحاديث هو منهج مهم ومتميز جداً. يعني ذلك أنه عندما يكون الكتاب في الحديث، فإن ذلك لا يعني عدم اهتمام المؤلف أو المصنف بإدراج الآيات ذات الصلة بالأحاديث بل إن من أهم الأمور الجمع بين القرآن وبين الحديث في بناء التصور المتعلق بباب من أبواب الدين. وهذه طريقة الإمام البخاري رحمه الله تعالى وإن كان كتابه الذي جمعه هو كتاب في الحديث ولكنه كان يعتني بإيراد بعض الآيات في الأبواب حتى يكون هناك قدر من التكامل بين التصور بين الكتاب والسنة وكذلك طريقة الإمام النووي رحمه الله تعالى في رياض الصالحين يحرص على ذكر الآيات فهنا في الباب الأول الذي هو الإخلاص وإحضار النية في جميع الأقوال أو الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية ذكر مجموعة من الآيات في هذا المعنى. فهذه طريقة شريفة مهمة ينبغي أن يعتنى بها في التكوين العلمي والتكوين التصوري للدين. وعن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العز بن أرياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» متفق على صحته، رواه أئمة المحدثين: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري وأبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري في صحيحيهما اللذين هما أصح الكتب المصنفة. بالنسبة لهذا الحديث الأول، فقد مر هذا الحديث ربما مع الدارسين الحاضرين هنا والمستمعين كثيراً، ولذلك لن نعيد نفس المفردات المتعلقة بالشرح والجمل وما إلى ذلك. ولكن أود الإشارة إلى قضية معينة مهمة جداً الآن. هذا الحديث قال فيه الأئمة عبارات معروفة مثل ماذا؟ الذي قال: "ثلث الدين" والذي قال: "الإسلام يقوم على أربعة أحاديث هذا أحدها"... تواردت العبارات عبارات المتقدمين من الأئمة على أن هذا الحديث أصل من أصول الدين.

يهمني الآن أن نقف مع هذه العبارات ونربطها بمعنى مهم جداً مرتبط بالسنة النبوية وبفهم الدين. سؤال: من أين أتوا بمعلومة أن هذا الحديث يساوي ثلث الدين أو أن الدين يقوم على أربعة أحاديث وهذه هذا أحدها أو نحو ذلك؟ بناء على ماذا يستقروا؟ الشيء الذي أريد أن أعلق عليه هنا هو كما يلي. كما أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: "ليهنك العلم أبا المنذر" حين عرف أعظم آية في كتاب الله، فإن هذا الباب لا يزال مفتوحاً، ليس الباب الذي فيه النص على أعظم آية أو نحو ذلك. فهذه قضية قد بينها النبي ﷺ. لكن الباب المتعلق بمراتب الدين لا يزال الاستنباط فيه مفتوحاً، مبنياً على ما له أصل في الشريعة. فإن تستطيع أن تدرك أن هذا الحديث له قيمة كبيرة في الإسلام، ولم تأت بهذا بهذه القضية من معلومة محددة منصوص عليها في الشريعة، يعني لا يوجد نص في الشريعة على أن هذا الحديث له أهمية خاصة. اليس كذلك؟ يعني لا يوجد حديث آخر ولا في سياق مناسب للحديث أنه النبي ﷺ قال لأصحابه مثلاً: إني سأحدثكم حديثاً هو أعظم ما تسمعون مثلاً. وإنما العلماء بعد ذلك استنبطوا استنباطاً أن هذا الحديث هو من أعظم الأحاديث التي قالها النبي ﷺ. لماذا؟ أصلاً من الذي يمكنه أن يقف أو أن يستنبط مثل هذا؟ الذي يمكنه أن يستنبط مثل هذا هو من يعلم تفاوت مراتب الدين ومن يعلم أن هناك ما هو أهم وما هو مهم وأن يعلم أن الدين ليس على مرتبة واحدة. حين يتعلق الحديث بالنية والإرادة وجه الله سبحانه وتعالى والإخلاص، أدرك العلماء أن هذا الحديث هو من أهم الأحاديث. ونظراً كذلك لما جاء فيه من الصيغة، وإنما لكل امرئ ما نوى، فكأنه هذا الحديث صار متعلقاً بسائر ما يعمل الإنسان في حياته من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى. يعني كأنك تقول: الأعمال إما أن تكون أعمالاً في القلب، وإما أن تكون أعمالاً بالجوارح. فأعمال الجوارح كلها لا تقبل إلا إذا كانت بنية، إذا كانت خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى. فما الحديث الذي يبين هذا على سبيل التوضيح المباشر باللفظ العام؟ هو هذا الحديث. وهذا تعظيم كبير لشأن النية. يعني لولا إدراكهم لعظم شأن الإخلاص وشأن أعمال القلوب، خيلنا نقول كلام العلماء الذي ورد فيه هو أهم ما أريد أن أوصل فيه رسالة في التعليق على هذا الحديث. أن ندرك أننا نتعامل مع النصوص الشرعية، وإن كانت وإن كان ينبغي أن تعامل جميعها بكونها مهمة، إلا أنه ينبغي أن يكون هناك قدر من التفاوت في إدراك الأهمية ورتبها، ولذلك ترى كانوا أثناء الطلب وأثناء رواية الحديث يقولون لك مثلاً: "هذا الحديث مثلاً يستحق أن يرحل لطلبه إلى كذا"، ولما قال الشعبي قال: "أعطيناك بغير شيء"، قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة في حديث واحد. إنه ترى كان يركب فيما دونها، إلى المدينة اللي سمع حديث، وتعرف جابر بن عبد الله رحل مسيرة شهر لسماع حديث واحد. يزداد الحديث قيمة وأهمية. الإخلاص هو أن باب النية وباب الإخلاص هو من أعظم أبواب الدين، وأن العناية به هي من أعظم المطالبات التعبدية. وأن من أعظم ما ينبغي أن يحرص الإنسان على أن يراعيه ويراجع في نفسه يومياً هو باب النية. وأنه إذا قال العلماء عن هذا الحديث أنه ثلث الإسلام أو ربع الإسلام أو نحو ذلك من العبارات، فإنما الشأن كل شأن في هذه العبارات. نظراً لكون هذا الحديث متعلقاً بالنية ومتعلقاً بالإخلاص. وأن من أعظم ما يدل عليه هذا الحديث أن الإنسان إذا لم يكن يريد بعمله وجه الله سبحانه وتعالى، فإنه مهما تعب وبذل وسعى، ولو كان عرض نفسه للخطر، فيما ظاهره أنه جهاد في سبيل الله أو هجرة في سبيل الله، فإنه لن ينتفع بذلك إلا إذا كان يبتغي بذلك وجه الله سبحانه وتعالى. فهذا هو المعنى الأهم الذي ينبغي أن يقف الإنسان عنده في هذا الحديث، أو الذي أردت أن أقف عنده في هذا الحديث. وأما التفصيل المتعلق بجمل الحديث وما إلى ذلك فيعني الكلام فيه معروف ومشهور وربما حتى يعني الإنسان وقف معه ربما في غيب الساري بصورة مفصلة. فلا أريد أن أكرر الحديث.